تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها أي إلا ما تطيق حمله والقيام به وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء ولهذا قال : { ولدينا كتاب ينطق بالحق } يعني كتاب الأعمال { وهم لا يظلمون } أي لا يبخسون من الخير شيئا وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين ثم قال منكرا على الكفار والمشركين من قريش : { بل قلوبهم في غمرة } أي في غفلة وضلالة { من هذا } أي القرآن الذي أنزله على رسوله صلى ا عليه وسلّم .

وقوله : { ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون } قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس { ولهم أعمال } أي سيئة من دون ذلك يعني الشرك { هم لها عاملون } قال : لا بد أن يعملوها كذا روي عن مجاهد والحسن وغير واحد وقال آخرون { ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون } أي قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة العذاب وروي نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ظاهر قوي حسن وقد قدمنا في حديث ابن مسعود : [فو الذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها] .

وقوله : { حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون } يعني حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب ا وبأسه ونقمته بهم { إذا هم يجأرون } أي يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى : { وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا * إن لدينا أنكالا وجحيما } الاية وقال تعالى : { كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص } وقوله { لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون } أي لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال : { قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون } أي إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم { ذلكم بأنه إذا دعي ا وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم العلي الكبير } .

وقوله : { مستكبرين به سامرا تهجرون } في تفسيره قولان (أحدهما) أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارا عليه واحتقارا له ولأهله فعلى هذا الضمير في به فيه ثلاثة أقوال (أحدها) أنه الحرم أي مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام (والثاني) أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة (والثالث) أنه

محمد صلى ا عليه وسلّم كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون فكل ذلك باطل بل هو عبد ا ورسوله الذي أظهره ا عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء وقيل المراد بقوله : { مستكبرين به } أي بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائي من التفسير في سننه : أخبرنا أحمد بن سليمان أخبرنا عبد ا عن إسرائيل عن عبد الأعلى أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال : إنما كره السمر حين نزلت هذه الاية { مستكبرين به سامرا تهجرون } فقال : مستكبرين بالبيت يقولون : نحن أهله سامرا قال : كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه وقد أطنب ابن أبي حاتم ههنا بما هذا حاصله